ثائرات

قصة جديدة
بقلم
ميخائيل نعيمة

ليلٌ عابق بانفاس الربيع ، طافح بشعاع القمر ، مزمّل بجلابيب سكينة تتلاقى في غضونها كل أصناف القلوب – وقلوب العشاق على الأخص .

ولكن الفتى والفتاة الجالسين تحت عريش من الياسمين في حديقة الجامعة ، ما كانا يتطارحان الشوق والهيام . إنهما طالبان في السنة الرابعة من كلية الآداب ، والوجوم البادي على وجهيهما أبعد ما يكون عن وجوم عاشقين خانهما النطق او تنكر لهما الحب . لقد طال سكوتهما ، وما كان يجدي الفتاة أن تتنحنح من حين الى حين . فجليسها قد تسمّرت عيناه بالارض وتبكل فكّاه ،فماتتحرك له شفة . وأخيراً ضاق صدرها ، فأخذت الكتاب الملقى بجانبها على المقعد ، ووضعته في حضنها ، ثم ضربت عليه بكفها وقالت :

- واخيراً ؟ أما آن ان تنطق يا فؤاد ؟

فانتفض فؤاد كمن كان في سبات عميق ، وهزته بغتة من كتفه هزة عنيفة . ومن غير ان يرفع بصره عن الأرض أجاب بصوت متلجلج :

– بلى . بلى . عذرك يا ثريا لكأن لساني قطعة من الحديد في فمي .

– ولماذا ؟ أما جئت بي الى هنا لتفضي الي بأمر جلل ؟ فما هو ذلك الأمر ؟ أم لعلّه من الهول بحيث لا تستطيع ان تتحدث عنه ؟

– إنه لكذلك يا ثريا . ومن ثمّ فالخجل يعقل لساني .

– الخجل ؟ وممّن ؟

– منك يا ثريا ومن ... نفسي .

– مني ؟ ! لكأنك ما عرفتني قبل اليوم ، وكأننا ما لعبنا معاً صغيرَيْن في ساحات القرية ، ولا نحن ندرس اليوم دروساً واحدة في جامعة واحدة .

– ليتنا ما كبرنا . بل ليتني وحدي ما كبرت . بل ليتني ما ولدت .

– فؤاد ! ما هذا الذي تكلمني بـه ؟ وأمس كنت تبني القصور والعلالي وتفرش الدنيا رياحين . ماذا حلّ بك ما بين أمس واليوم ؟

– أمس كنت إنساناً .

– واليوم ؟ .

– واليوم ... اليوم أنا ...

وخيّل الى ثريا ان الفتى الجالس بجانبها قد غصّ بريقه – بل بدمعه . فانقبض قلبها عطفاً عليه . وشاءت ان تقول شيئاً يزيل غصته فما وجدت على الفور ما تقول . واكتفت بأن اخذت يده في يدها وشدّت عليها بكل قوتها . ومن بعد فترة من الصمت المرهق عادت فقالت :

– أتبكي يا فؤاد ؟

فاجابها والغصّة تخنقه :

– لا . وحريّ بي ان أبكي .

– ما عهدتك مائع العينين والقلب .

– ولا عهدتني ... لصّاً .

وقعت الكلمة الاخيرة على ثريا وقع الصاعقة . فما كادت تصدق أذنها . وكانت تجزم بأن جليسها يمزح لولا الاضطراب العميق البادي في ملامحه وفي صوته وفي كل حركة من حركاته . أيمكن ان يكون لصاً هذا الشاب الذي غالب اليتم والفقر منذ الصغر فشق طريقه من الدراسة الابتدائية الى الثانوية الى الجامعية بالصبر والحرمان والجهد المضنك وبارادة من فولاذ ؟ صحيح أن امّه ساعدته كثيراً بما كانت تنتجه من تعب يديها . إذ كانت تغسل وتخبز بالاجرة للاغنياء ، ولا تحجم عن القيام باي عمل ، مهما يكن خسيساً وشاقاً ، مادام يأتيها بالقرش تنفقه على تعليم وحيدها . ولكنها اصبحت طريحة الفراش منذ عامين . وفؤاد مضطر ان يعولها وأن يعول نفسه ويقوم بنفقات دراسته . وها هو قد بلغ سنته الاخيرة ، وبينه وبين الشهادة الجامعية شهر وبعض الشهر . وهو متفوق في جميع دروسه . والكل من اساتذته ورفاقه يتنبأ له بمستقبل باهر . فمواهبه لا شك في غزارتها ، واخلاقه مضرب المثل ، وعلى الأخص عزة نفسه . فما عُرف عنه يوماً ، رغم ضيق ذات يده ، انه اقترض فلساً من إنسان او طلب معونة ، مهما يكن نوعها ، من اي مخلوق .

لقد كانت ثريا ، وقد عرفته منذ حداثته وعرفت الكثير عن ظروفه القاسية ، اشد رفاقه اعجاباً بذكائه ، وسمو تفكيره ومناعة خُلقه ، ونقاوة رجولته . ولكم تحدثت اليه في شتى الامور . فكان يدهشها بقوة حجته ، وجميل بيانه ، وعمق تفكيره . وهي تذكر في ما تذكر قوله لها مرّة إنه يشكر

الله لانه ولد فقيراً لا غنياً . فالفقر ليس عاراً . وإنما العار في الذي والاستكانة للفقر . والفقر دون الذل والاستكانة أعظم مدرسة في الارض . اما الغني فشرّ ما فيه غطرسته وبهرجته . والغني المتغطرس يحفر قبره بظلفه . وذلك بما يثيره في المحرومين من حسد وحقد وضغينة لا تلبث ان تتفجر قلاقل وثورات وحروباً .

وازدحمت الذكريات والصور في ذهن ثريا. فما استطاعت، كيفما قلّبتها ، ان تستنتج من اي منها ، او من مجموعها ، ان الشاب الجالس بجانبها يمكن ان يكون يوماً من الايام لصاً ، مهما قسَت عليه الظروف ، ومهما بلغت به الحاجة . ذلك هو المستحيل بعينه . وانتهت بان اطلقت قهقهة عالية وضربت جليسها على كتفه وقالت :

— السلام يا سيد اللصوص . بقي ان نعرف اذا كان ما اصطدته اليوم يؤهلك لهذا اللقب الرفيع . هات برهانك .

ولكنها ، ما إن فاهت بمداعبتها تلك حتى ندمت عليها وتمنّت لو تستطيع ان تستردّها . ففؤاد راح يرتجف كالورقة وينتفض انتفاضة العصفور الذبيح . وطالت رجفته وتسارعت انفاسه حتى خشيت عليه من عارض لا تحمد عقباه . فانعقل لسانها ، وتبللت عيناها ، وما بقيت تدري ماذا تقول او ماذا تفعل .

مرّت دقائق والفتى والفتاة في صمت رهيب، والقمر يتحجب تارة بغمامة بيضاء وطوراً يسفر كأنه والارض يلهوان بلعبة كالتي يلعبها الصغار إذ يختبيء الواحد فيفتش عنه الآخر. واخيراً مدّ فؤاد يده الى جيبه واخرج منها شيئاً ثم طرحه بسرعة في حضن ثريا وكأنه يطرح عقرباً او ثعباناً . وقال :

— اليك البرهان .

وتناولت ثريا ذلك الشيء وتأملته في نور القمر، فاذا بهسوار من الذهب الخالص ، البديع الصنع ، وقد رُصّع بالياقوت والألماس . وظلت دقائق تتفحصه وتقلّبه ذات اليمين وذات اليسار ، فكأنها مبهورة بجماله ولمعانه . ولكنها ، في الواقع ، كانت تفعل ما تفعله وهي في شبه انخطاف . فلا فكرها ولا بصرها كانا مركّزين على السوار في يدها . واخيراً لبسته على معصمها وبرمته برمتين ثم التفتت إلى فؤاد وقالت :

— شيء بديع . وبديع جداً ، إن يكن هذا صيدك يا فؤاد وانت ما تزال في اسفل سلم اللصوصية ، فكيف بك اذا بلغت اه ؟ هات ، اخبرنا من اين وكيف ؟

ما كادت ثريا تلفظ الكلمة الاخيره حتى وثب فؤاد الى قدميه ، وانتصب امامها كالعمود ، ثم انحنى قليلا وراح يقذف الكلام من فمه كأنه هذيان المحموم ، ولكن بنبرات سريعة ، وبصوت خافت. فكأنه كان يخشى ان تسمعه حتى الياسمينة التي فوق رأسيهما :

— انا رجل هالك يا ثريا — هالك الى الابد. اتفلي في وجهي. العنيني . اصفعيني . اركليني . ولكن رجوتك ان تسمعيني. ولمن عساني اعترف إن لم يكن لك ؟ انت ما افسدك الغنى . ولقد اذلني الفقر . اذلني ساعة ظننتني اذللته. علي للجامعة رواتب استحق دفعها . وامي ، كما تعلمين ، طريحة الفراش منذ عامين . وانا لست املك ثمن الدواء لها . ولا اجرة الطبيب . ولا اجرة ممرضة . انا وحدي الدواء والطبيب والممرضة . لقد تقرحت المسكينة . وراح الدود يأكلها وهي حيّة . وبتّ اشعر ان الدود الذي يرعى في لحمها يرعى في لحمي كذلك .

طار عقلي . اظلمت الدنيا في عيني . قلت ادوس كبريائي وعزة نفسي في سبيل امي التي ما ضنّت بحياتها عليّ . فأقترض بعض المال. وقلت قريباً احصل على شهادتي وعلى عمل يساعدني على وفاء الدين . وقلت اذهب الى فريد صرصور . انه شاب طائش ، مبذّر ، ورث ثروة طائلة عن ابيه . وهو يعرفني واعرفه ، ولي عليه بعض الفضل . إذ كان كثير الرسوب في امتحاناته ايام دراسته . وكنت القنه دروساً خاصة . ولولاي

لما نال شهادته . فريد صرصور — ألا تعرفينه يا ثريا ؟

— أعرفه .

قالت ثريا ذلك وهي تحاول ان تخفي رجفة في صوتها وفي عضلاتها . ثم اردفت بسؤال :

— وكيف كان استقباله لك ؟

— وجدته يلعب « البوكر » مع زمرة من رفاقه . فما ترك اللعب ليقابلني . بل امرني بالانتظار — فرحت انتظر — وعندما توقفوا قليلاً عن اللعب ليشربوا الوسكي ويأكلوا بعض الحلويات رأيته يخرج هذا السوار من جيبه ويديره على الحضور ليتأملوا جماله . وسمعته يتبجّح بذوقه في انتقاء المجوهرات ، ويقول ان السوار هدية لخطيبته ، وقد دفع ثمنه خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، وهو مزمع ان يفاجيء خطيبته به الليلة — اي الليلة البارحة — في الحفلة الراقصة في نادي «سميراميس» .

عندها قاطعت ثريا فؤاداً لتسأله في لجاجة :

— وماذا كان نصيبك منه في النهاية ؟ بماذا أجابك عندما طلبت منه المال ؟

— اجابني من بعد ان تنازل وسألني عن حاجتي ، ومن بعد ان وصفت له حالتي وحالة امي — اجابني بكل صفاقة : « واي بأس لو أكل الدود لحم امك وهي حية ؟ ألعلها اكثر من غسّالة ؟ » ولم يكتف بذلك حتى اضاف : « واي حاجة بابن غسالة الى شهادة جامعية ؟ اذهب واعمل عملاً تعيش منه . ولا تطمح الى العلوّ فوق أصلك . ذلك خير لك من الاستعطاء » .

— هكذا ، هكذا أجابك ؟ يا للوقاحة !

وانتفضت الفتاة وامتقع لونها وعضّت على شفتها السفلى وراحت تقلّب السوار في يدها على غير وعي منها . ولكن فؤاداً ما لاحظ شيئاً من ذلك ومضى في حديثه :

— خرجت من عنده وفي داخلي زلازل وبراكين . ولو كان في استطاعتي ان أنسف الأرض والسماء بكلمة او بنفخة لفعلت . وايّ خير لي فيهما وقد حبستا عني كل خير ؟ اي خير في حياة صراصيرها نسور ، ونسورها جعلان ؟ ولكن ، أتموت امي مفتحة العينين وفي عروقي دم ؟ لا . لن تموت . سآتيها بالطبيب . وآتيها بالدواء . وآتيها بالمال . لقد جازفتُ بعزّة نفسي فخسرتها . انحدرت الى الحضيض . فلأنحدر الى ما دون الحضيض . وهكذا صار فؤاد لصاً يا ثريا . وكان هذا السوار با كورة لصوصيته .

وتوقف فؤاد عن الكلام وهو يلهث إعياء . وما كان يجد الجرأة في نفسه ليمضي في الحديث ويخبر ثريا كيف تاثم وتزيّا بزيّ بدوي ، وكيف كمَن لفريد صرصور ليلاً وهو في طريقه الى النادي ، وكيف اوقف سيارته وشهر في وجهه مسدساً كالذي يلعب به الأولاد ، وكيف انتزع السوار من جيبه واطلق ساقيه للريح . وطال سكوته ، فشعرت ثريا بارتباكه ولم تشأ ان يمضي في اعترافه الى ابعد من ذلك فقالت برقة متناهية :

— يكفي . يكفي يا فؤاد . لقد فهمت كل شيء . ولا حاجة الى التفصيل . والآن ماذا انت فاعل بهذا السوار يا فؤاد ؟ أتريدني ان اشتريه منك ؟

— لا . لا . لا . اما كفى ان تلوثت انا حتى الوثك انت كذلك ؟ لا . لا . وألف لا . إني اقشعرّ من منظره . واقشعرّ من لمسه . واقشعر من ذكر كل حركة اتيتها في سبيل الحصول عليه . وجلّ ما ارجوه منك يا ثريا ، — إذا كان ذلك لا يزعجك — ان تردّي السوار لصاحبه ما دمت تعرفينه . ولك ان تخبريه بكل ما سمعته مني . لقد انزلق فؤاد من القمة إلى الهاوية . ولكنه لن يبقى في الهاوية . لتمت ام فؤاد . ليمت فؤاد . ولكن ليموتا شريفين . لا . لن يموت فؤاد لصاً . وقد لا يموت إلاّ ثائراً على كل ما في الأرض من نتن وظلم وفساد . بل لن يموت إلاّ ثائراً . لقد عاهدت نفسي على ذلك . والصراصير لن تملك الأرض إلى الأبد . إن لي ولامثالي نصيباً في سَمنها وشهدها . ولن نتخلى عنه للجشعاء والمتخمين .

— هوّن عليك يا فؤاد . ما من نزول الاّ بعده صعود . ودعني ابوح لك بسرٍ قد تتذهل له .

— هاتي يا ثريا . سرّك عندي سرّ .

— أتعرف لمن هذا السوار ؟

— لمن ؟

— لي . ولكنني ساعيده الليلة الى فؤاد صرصور .

— لك ؟! لك انتِ يا ثريا ؟ وكيف ذلك ؟

— انا خطيبة فؤاد صرصور .

— انت خطيبته ؟! واخجلي منك !

— الأصح انني كنت خطيبته الى ان سمعت منك ما سمعت .

— ثريا ، ثريا ! ليت الأرض تنشق وتبتلعني .

— بل ستبتلع الأرض الصراصير .

★

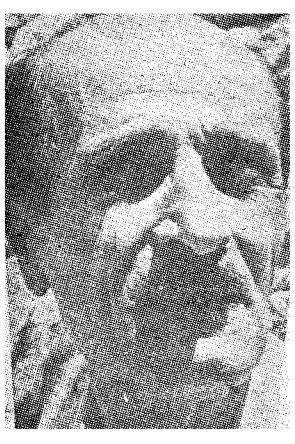

منذ ايام قرأت خبراً صغيراً في احدى الجرائد المحلية مفاده ان الشرطة ألقت القبض على فؤاد رمّاح وزوجته ثريّا لقيامهما بتوزيع نشرات سرّية من شأنها ان تخلّ بأمن الدولة ، وان هذين الزوجين يُعدّان في نظر المسؤولين من اشدّ العناصر « الهدامة » خطراً على البلاد ...

ميخائيل نعيمه